الانتحار[(١)]

- ١ -

حَدَّثَ المُسَيَّبُ بن رافعِ الكوفيُّ ، قال : بينا أنا يوماً في مسجد الكوفة ، ومعي سعيدُ بنُ عثمان ، ومجاهد ، وداودُ الأَزْدِيُّ ، وجماعةٌ ، أقبلَ فتىً ، فجلس قريباً منَّا ، وكان تلقاءَ وجهي ، لا أَمُدُّ نظري إلا انطلقَ في سَمْتِه ، ووقف عليه ، وكنَّا نتحدَّثُ ، فرأيتهُ يتسمَّعُ إلى حديثنا ؛ فلمَّا تكلَّم سعيدٌ ـ وكان خافتَ الصَّوت من علَّةٍ به ، وكنَّا نسمِّيه : النَّملة الصَّخَّابة ـ رأيتُ الفتى يتزحَّفُ قليلاً قليلاً حتَّى صار بحيث يقعُ في سَماعه حَسِيسُ نَمْلتِنا .

وكان سعيد يقول : اجْتزْتُ أنا والشَّعبيُّ[(٢)] أمس بعمرانَ الخيَّاط ، فمازَحه الشَّيخُ ، فقال له : عِندنا حِبٌّ[(٣)] مكسورٌ ، تَخيطُه ؟ قال : نعم ، إن كان عندك خيطٌ من ريحٍ ! فقلتُ أنا : فاذهبْ ، فجئنَا بالمِغْزَل ؛ الَّذي يغزِلُ الهواء ؛ لنصنعَ لك الخيط .

قال مجاهد : هذا ليس بشيءٍ في تنَادُرِ شيخِنا ، وما يتَّفق له . أخبرَني أنَّ رجلاً جاءهُ في مسألةٍ ، فدخل عليه البيت ، وهو جالسٌ مع امرأته ؛ فقال الرَّجل : أيُّكما الشَّعبيُّ . . . ؟ فأومأ[(٤)] الشَّيخ إلى امرأته ، وقال : هذه . . . !

---

(١) انظر سبب إنشائه هذه المقالات السِّتِّ في « عود على بدء » من كتاب : حياة الرافعي . (س) .

(٢) هو الإمام العظيم عامر بن شراحيل الشعبي ، توفي سنة (١٠٣) للهجرة ، أو حولها عن بضع وثمانين ، وكان في عصره أحد العلماء الأربعة في الإسلام : سعيد بن المسيب في المدينة (ذكرناه في قصة زواج) ، والحسن البصري في البصرة (ذكرناه في قصة : بنته الصغيرة) ، ومكحول في الشام ، والشعبي هذا في الكوفة ، وكان يشبه في زمانه ابن عباس في زمانه . (ع) .

(٣) « الحِبُّ » ـ بكسر الحاء ـ : هو الزِّير ، يستقطر الماء من أسفله فيخرج صافياً ، ويقال لرشحه : قطر حبٍّ . (ع) .

(٤) « أومأ » : أشار .

قال المُسيَّب : وضحكنا جميعاً ، وأخذ نظري الغلامَ ، فإذا هو ناكِسٌ[١] حزناً وهمّاً ، وكأنَّه لا يتسمَّع إلينا ليسمع ، بل ليشغلَ نفسَه عن شيءٍ فيها ، فتتوَزَّعَ خواطرُه ، فيتبدَّد اجتماعُها على همِّه بصوتٍ من هنا ، وصوتٍ من هنا ، كما يفعل المحزونُ في مغالبة الحزن ، ومُدَافعتِه : يَشْغَلُ عنه بصرَه ، وقلبَه ، وسمعَه جميعاً ، فيكون الحزنُ فيه ، وكأنَّه بعيدٌ منه .

فقلت في نفسي : أمرٌ أماتَ الضَّحِكَ في هذا الفتى ، وكَسر حِدَّتَه ، وشبابَه . ثُمَّ تحوَّلتُ إليه ، وقلت : رأيتُكَ يا بنيَّ مقبلاً علينا ، كالمنصرِف عنَّا ؛ فما بالُكَ لم تضحك ، وقد ضحكنا جميعاً ؟!

قال : إليكَ عنِّي يا هذا ! فأين منِّي الضَّحكُ ، وأنا على شَفِير القبر ، ورُوح التُّراب مالىءُ عينيَّ في كلِّ ما أرى ، وكأنَّ حُفرتي ابتلعت الدُّنيا التي أنا فيها لتأخذَني فيها ، وأنا السَّاعةَ ميتٌ حيٌّ ؛ رِجلٌ في الدُّنيا ، ورِجْلٌ في الآخرة !

قلت : فأعلمني ما بك يا بنيَّ ؟! فلقد احتسبْتُ ولداً لي كان في مثل سِنِّك ، وشبابك ، ولم أُرزق غيرَه ، فقلْبِي بعده مريضٌ به ، يتوسَّمُهُ مُفَرَّقاً في لِدَاتِه[٢] ، مُتوهِّماً أنَّ وجوهَهم تجمعه بملامحه ؛ فأنا من ذلك أحبُّهم جميعاً ، وأطيل النَّظر إليهم ، والتأمُّل في وجوههم ، ولست أرى أحداً منهم إلا كان له ولقلبي حديثٌ ، فإن رأيتُه حزيناً مثلك ؛ تَقَطَّعْتُ له من إشفاقٍ ، ورحمةٍ ، وطالعَني فتايَ في مثلِ همِّه ، وحزنه ، وانكساره ؛ فيعود قلبي كالعين ؛ التي غشَّاها الدَّمعُ ، تحمل أثَرَ الحزنِ ، ومعناه ، وسرَّه ؛ فبُثني ما تجدُ يا بنيَّ ! فلعلَّ لي سبباً إلى كَشفِ ضُرك ، أو إسعافِك بحاجتك ، ولعلَّك تكون قد حزنتَ من أمرٍ قريب المتناوَل ، هيِّنِ المحاوَلة ، لم يجعله عندك كبيراً أنَّه كبير ، ولكنْ أنَّك أنت صغير .

قال الفتى : مهلاً يا عمُّ ! فإنَّ ما نزل بنا ممَّا تنقطع عنده الحيلة ، ولا تَنْقاد فيه الوسائل ، ولا علاجَ منه إلا بالموت ، يأخذنا ، ويأخذه !

قلت : يا بنيَّ ! هذه كلمةٌ ما أحسَبُ أحداً يقولها إلا من أُخِذَ للقتل بجنايته ، ولم يَعفُ أهلُ الدَّم ، فهل جنيتَ ، أو جنىَ أبوك على أحدٍ ؟

---

(١) « ناكس » : أي : مطأطئ رأسه .

(٢) « لداته » : اللِّدة : الذي وُلد معك في وقتٍ واحدٍ . والجمع : لِدَات .

قال : إنَّ الأمر قريبٌ من قريبٍ ، فإنِّي تركتُ أبي السَّاعة مُجْمِعاً على إزهاقِ نفسه ، وقد أغلقَ عليه الدَّارَ ، واستوثَق من الباب !

قال المسيِّب : فكأنَّما لدغتني حيَّةٌ بهذه الكلمة ، وأكبرتُ أن يكون رجلٌ مسلمٌ يقتلُ نفسَه ، فتناهَضْتُ ، ولكنَّ الغلامَ أمسكَ بي ، وقال : إنَّه لا يزال حيّاً ، وسيقتل نفسَه متى أظلم اللَّيلُ ، وَهَدَأت الرِّجل .

قلت : الحمد لله ! إن في النُّور عقلاً ، ولكن ما الذي صار به إلى ما قلت ، وكيف تركته لِقَدَرِهِ ، وجئت ؟!

قال الفتى : إنَّه قال لي : يا ولدي ! ليس لك أبٌ بعدي ؛ فإن أردتَ اللَّحاقَ بي ، فارجع مع الليل ؛ لنُسْلِمَ أنفسَنا ! وإن آثرتَ الحياةَ ، فارجع مع الصُّبح لتُسلِمَني إلى غاسلي !

قلت : أفآمِنٌ أنت ألا يكونَ أبوك قد أخرجك عنه ؛ لأنَّ عينَك تُمْسِكُ يدَه ، وتردُّه عما يَهُمُّ به ، حتَّى إذا خلا وجهُه منك ؛ أزهق نفسَه ؟

قال : لم أدَعْه حتَّى أقسَمَ أن يحيا إلى اللَّيل ، وحتَّى أقسمتُ أن أرجع لأموتَ معه ؛ فإن لم تمسكه يمينُه ؛ أمسكه انتظاري ، وقد فرغَتِ الحياةُ منَّا ، فلم يبقَ إلا أن نفرغَ منها ، ومن كان فيما كُنَّا فيه ، ثُمَّ انحدر إلى ما انحدرنا إليه ؛ لم يُرِ النَّاسَ من نفسه ضَعةً ، ولا استكانة : وإنَّما خرجتُ لأسألَ هذا الإمام (الشَّعبيَّ) وجهاً من الرأي فيمن يقتل نفسه ؛ إذا ضاقت عليه الدُّنيا ، ونزلتْ به النازلاتُ ، وتعذَّر القُوت ، واشتدَّ الضُّرُّ ، وتَدَلَّت به المسكنةُ إلى حَضِيضها ، وأُلجئ إلى أحوالٍ دَقَّته دَقَّ الرَّحَى ؛ لما تدور عليه ، ولم يَعُدْ له إلا رأيٌ واحدٌ في معنى الدُّنيا ، هو : أنَّه مكذوبٌ مزَوَّرٌ على الدُّنيا .

قلت : يا بنيَّ ، فإنِّي أراك أديباً ؛ فمن أبوك ؟

قال : هو فلانٌ التَّاجر ، ظهر ظهورَ القمر ومُحِقَ محاقه ، وهو اليوم في أحْلكِ الليالي[1] ، وأشدِّها انطماساً ؛ جَهَدَه الفقر[2] ، ويا ليته كان الفقر وحدَه ! بل انتهكتْه العِلَل ، وليتها لم تكن إلا العِلَلَ مع الفقر ! بل أخذ الموتُ امرأتَه ، فماتت

(١) « أحلك الليالي » : أظلم الليالي ، وأشدّها سواداً .

(٢) « جهده الفقر » : اشتدَّ عليه ، وبلغ منه غايته .

همّاً به ، وبي ، ولم يكن له غيري ، وغيرُها ، وكان كلٌّ من ثلاثتنا يحيا للاثنين الآخرين ، فهذا ما كان يجعل كلاً منّا لا يفرَغُ إلا امتلأ ، ولما ذهبَت الأمُّ ؛ ذهبت الحقيقةُ ؛ التي كنّا نقاتل الأيامَ عنها ، وكانت هي وحدها تُرينا الحياةَ بمعناها ؛ إن جاءتنا الحياةُ فارغةً من المعنى ، وكنّا من أجلها نفهم الأيام على أنّها مجاهَدَةُ البقاء ، أمّا الآن : فالحياةُ عندنا قَتْلُ الحياة . . . !

قلت : يا بنيَّ ، فإنَّك والله مع أدبك لَحكيم ! وإني لأنْفَسُ بك على الموت ، فكيف ردَّتك حياةُ أمِّك عن قتل نفسك ، ولا تردُّك حياةُ أبيك ؟

قال : لو بقي أبي حيّاً ؛ لبقيت ، ولكنَّ الدّهر قد انتزع منه آخِرَ ما كان يملك من أسباب القوَّة ، حين أخَذَ القلبَ الشَّفيق ؛ الذي كان يجعله يرتعد ؛ إذا فكَّر في الموت ، فهو الآن كالذي يحاربُ عن نفسه تِلْقاء عدوٍّ لا يرحمه ، إن عجز عن عدوِّه ؛ فالرأيُ قتلُ نفسِه ؛ ليستريحَ من تنكيل العدوِّ به .

* * *

قال المسيَّب بنُ رافع : وأدركتُ أنَّ الفتى يُريد من سؤال الشَّيخ تَحِلَّةً يطمئنُّ إليها أن يموتَ مسلماً ؛ إذا قتل نفسَه ، كالمضطرِّ ، أو المُكْرَه ؛ فأشفقتُ أن أكْسِرَ نفسَه إذا أنا حدَّثتُه، أو أفتيتُه ؛ وقلت : هذا مريضٌ ، يحتاج العلاجَ ، لا الفُتْيا ؛ وكان إمامُنا (الشَّعبيُّ) حكيماً لَحِناً فَطِناً ، سَفَر بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهلِ الرُّوم ، فحسدَنا العاهلُ أن يكون فينا مثلُه . وقلتُ : لعلَّ اللهَ يُحدِث به أمراً ! فأخذتُ بيد الفتى إليه ، ومشيتُ أكلِّمه ، وأُرفِّه عن نفسه . وقلت له : أما تدري أنَّك حين فرغْتَ من سرور الحياة ؛ فرغتَ من غرورها أيضاً ، وأنَّ الزَّاهد المنقطعَ في عُرْعُرَة الجبَل[1] ينظر من صَوْمعته إلى الدُّنيا ، وليس بأحكَم ولا أبصرَ ممَّن ينظر من آلامه إلى الدُّنيا ؟

يا بنيَّ ! إنَّ الزَّاهد يحسِب : أنَّه قد فرَّ من الرذائل إلى فضائله ، ولكنَّ فراره من مجاهَدة الرَّذيلة هو في نفسه رذيلةٌ لكلِّ فضائله . وماذا تكون العفَّةُ ، والأمانةُ ، والصِّدقُ ، والوفاء ، والبرُّ ، والإحسانُ وغيرُها ؛ إذا كانت فيمن انقطع في صحراء ، أو على رأس جبل ؟ أيزعم أحدٌ : أنَّ الصِّدق فضيلةٌ في إنسان ليس حوله

---

(١) « عرعرة الجبل » : رأسه ، ومعظمه .

إلا عشرة أحجارٍ ؟! وايمُ الله ! إنَّ الخاليَ من مجاهَدَةِ الرَّذائل جميعاً ، لَهُوَ الخالي من الفضائل جميعاً !

يا بنيَّ ! إنَّ من النَّاس مَنْ يختارهم الله ، فيكونون قَمْح هذه الإنسانيَّة : يَنْبُتون ، ويُحصَدون ، ويُطْحَنون ، ويُعجَنون ، ويُخبَزون ؛ ليكونوا غذاءَ الإنسانيَّة في بعض فضائلها . وما أراك أنت ، وأباك إلا من المختارين ، كأنَّ في أعراقكما دم نبيٍّ يُقْتَل ، أو يُصْلب !

قال المسيَّب : وانتهينا إلى دار الشَّعبيِّ ، فطرقتُ الباب ، وجاء الشَّيخ ، ففتح لنا ، وسلَّمنا ، وسلَّم ، ثُمَّ بَدَرْتُ ، فقلت : يا أبا عمرو ! إنَّ أبا هذا كان من حاله كَيْت ، وكيت ، فترادَفَتْ عليه المصائبُ ، وتوالت النَّكباتُ ، وتواترت الأسقام . . . ثُمَّ اقتصصْتُ ما قال ابنُه حرفاً ، حرفاً ، ثُمَّ قلت : وإنَّه الآن مُوشِكٌ أن يُزهِقَ نفسَه[1] ، وسيَتبعه ابنُه هذا ، وقد هداه الله إليك فجاء يسألك : أيموت مسلماً مَنْ ألجئ ، وأُكْرِه ، واضطُرَّ ، واسْتَضاق ، واختلَّ ، فَتَحسَّى سُمّاً[2] ، فهَلَكَ ، أو توَجَّأ بحديدةٍ ، فَقَضَى ، أو ذَبَح نفسَه بنَصْلٍ ، فَخَفَتَ ، أو حزَّ في يده بسكِّينٍ ، فما رقأ[3] دمُه ؛ حتَّى مات ، أو اختنق في حبلٍ ، ففاضت نفسُه ، أو تَرَدَّى من شاهقٍ ، فطاح . . . . !

وأدرك الشَّيخ معنى قولي : (هداه الله إليك) ، ومعنى ما أكثرت من الألفاظ المترادفة على القتل ، وما استقصيتُ من وجوهه ؛ فعلم أنِّي لم أسأله الفُتْيا والنَّص ، ولكنِّي سألته الحكمة ، والسياسة . فقال : هذا والله رجلٌ كريم ! أخذته الأنَفةُ ، وعزَّةُ النَّفس ، وما أنا السَّاعةَ بمعْزَلٍ عن همِّه ، فنذهب نكلِّمه ، والله المستعان .

ومشينا ثلاثتنا ، فلمَّا شارَفْنا الدَّارَ ، قال الفتى : إنَّه لا يفتح لي إذا رآكما ، وربما اسْتَفَزَّ بنفسه ، فأزهَقهَا ، وسَأتَسوَّر الحائطَ ، وأتدلَّى ، ثم أفتح لكما ، فتدخلان ، وأنا عنده .

* * *

(١) « يزهق نفسه » : زَهَقَتْ نفسُه : فارقتِ البدن .
(٢) « تحسَّى سُمّاً » : تناوله جُرْعة بعد جُرْعة .
(٣) « رقأ » : انقطع .

ودخلنا ؛ فإذا رجلٌ كالمريض من غير مرضٍ ، خوّارٌ مسلوبُ القوّة ، انزعج قلبه إلى الموت ، وما به جُرْأةٌ ، وإلى الحياة ، وما به قوّةٌ ، وصَغَّر إليه نفسَه : أنَّها أصبحت في معاملة النَّاس كالدِّرهم الزَّائف ، لا يقبله أحد ، وثابر عليه داءُ الحزن ، فأضناه ، وتركه رُوحاً تتقعقعُ[1] في جِلدها ، فهي تهمُّ في لحظةٍ أن تَثِبَ ، وتندلق .

وسلَّم الشَّيخُ ، وأقبل بوجهه على الرَّجل ، ثمَّ قال : بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧][2] .

فقطع عليه الرَّجل ، وقال كالمحنق[3] : أيُّها الشَّيخ ، قد صبرنا حتَّى جاء ما لا صبر عليه ؛ وقد خَلونا من معاني الكلام كلِّه ، فما نقدر عليها إلا لفظةً واحدةً نملك معناها ، هي أن ننتهي !

ومدَّ الشَّيخُ عينه ، فرأى كُوَّةً مسدودةً في الجدار ، فقال لي : افتحْ هذه ، ودَع الهواء يتكلم معنا كلامَه . فقمت إليها ، فعالجتها ؛ حتَّى فتحتُها ، ونفذ منها رَوْحُ الدُّنيا ، وقال الشَّيخ للرَّجل : أصغِ إليَّ ، فإذا أنا فرغتُ من الكلام ؛ فشأنَكَ بنفسك :

أعلمتَ : أنَّ رجلاً من المسلمين قد مَرِض ، فأعْضلَ مرضهُ ، فأثبتَه على سريره ثلاثين سنةً ، لا يتحرَّك ، وطَوى فيه الرَّجُلَ الذي كان حيّاً ونشر منه الرَّجلَ الَّذي سيكون ميْتاً ، فبقي لا حيّاً ، ولا ميتاً ثلاثين سنة . . . ؟

قال الرَّجل : وفي الدُّنيا مَنْ يعيش على هذه الحال ثلاثين سنة ؟

قال الشَّيخ : صَحِّح الكلامَ ، واسألْ : أيَصبر على هذه الحال ثلاثين سنةً ولا يقول : (جاء ما لا صبر عليه) ! وأيُّ شيء لا صبر عليه عند الرَّجل المؤمن ؛ الذي يعلم : أنَّ البلاءَ مالٌ ، غير أنَّه لا يوضَع في الكيس ، بل في الجسم ؟

---

(١) « تتقعقع » : تتحرك .

(٢) « البأساء والضراء » : البؤس ، والفقر ، والسُّقْم ، والوَجَع . « حين البأس » : وقت قتال العدو .

(٣) « المحنق » : أحنق فلاناً : أغضبه ، وغاظه غيظاً شديداً ، فهو مُحْنَق .

أفتدري مَنْ كان الصَّابرَ ثلاثين سنةً على بلاء الحياة ، والموت مجتمعَين في عظام مُمَدَّدة على سريرها ؟ إنَّه إمامُنا (عمرانُ بنُ حُصَينٍ الخُزاعيِّ)[١] الذي أرسله عمرُ بن الخطَّاب يُفقِّه أهلَ البصرة ، وتولَّى قضاءها ، وكان الحسن البَصريُّ يحلف بالله ماقدِمَها خيرٌ لهم من عمران بن حُصَيْنٍ . ولقد دخلتُ عليه أنا ، وأخوه العلاء ، فرأيناه مُثْبَتًا على سرير الجريد كأنَّما شُدَّ بالحبال ، وما شُدّ إلا بانتهاك عَصَبه ، وذَوَبانِ لحمه ، ووَهَنِ عظامِه ، فبكى أخوه ، فقال : لِمَ تبكي ؟! قال : لأني أراك على هذه الحال العظيمة ! قال : لا تَبكِ ! فإنَّ أحبَّه إلى الله تعالى أحبُّه إليَّ . ثُمَّ قال : إنَّ هذه الأرض تحمل الجبالَ ، فلا يشعر موضعٌ منها بالجبل القائم عليه ؛ إذ كان تماسُكُ الأرضِ كلِّها قد جَعَل لكلِّ موضعٍ منها قوَّةَ الجميع ، ولولا هذا لَدَكَّ الجبلُ موضعَه ، وغارَ به ؛ وكذلك يحملُ المؤمنُ مثلَ الجبال من البلاء على أعضائه ، لا ينكسر لها ، ولا يتهدَّم ؛ إذ كانت قوَّةُ روحِه قوَّةً في كلِّ موضع ، فالبلاءُ محمولٌ على همَّةِ الرُّوح ، لا على الجسم ، وهذا معنى الخبر : « إنَّ المؤمن بكلِّ خيرٍ على كلِّ حالٍ ، إنَّ رُوحَه لتُنزعُ من بين جنبيه ؛ وهو يَحمَد اللهَ عزَّ وجل ! »[٢] .

ثُمَّ قال : ولكن ذاك هو المؤمن ، فمن آمن بالله ، فكأنَّما قال له : « امتَحِنِّي ! » وكيف تراك إذا كنتَ بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش ؛ أمَا تفرضُ عليك شجاعتُك أن تقول للقائد : « امتحِنِّي ، وارْمِ بي حيث شئت . وإذا رَمَى بك ، فرجعْتَ مُثْخَناً بالجراح ، ونالك البترُ[٣] ، والتَّشويه ، أتُراها أوصافاً لمصائبك ، أم ثناءً على شجاعتك ؟! » .

ثُمَّ قال : إذا لم يكن الإيمان بالله اطمئناناً في النَّفس على زَلازِلها ، وكَوارِثها ؛ فلم يكن إيماناً ، بل هو دعوى بالفِكْر ، أو باللِّسان ، لا يعْدُوهما ، كدعوى الجبان : أنَّه بطل ، حتَّى إذا فَجَأه الرَّوْعُ[٤] أحدَثَ في ثيابه من الخوف . . . ومِنْ ثَمَّ كان قتلُ المؤمن نفسَه لبلاءٍ ، أو مرضٍ ، أو غيرِهما كفراً بالله ، وتكذيباً لإيمانه ،

---

(١) توفي سنة (٥٣) من الهجرة . (ع) .
(٢) سبق تخريجه .
(٣) « البتر » : القطع .
(٤) « الروع » : الفزع ، والخوف .

وكان عملُه هذا صورةً أخرى من طيش الجبان ؛ الَّذي أحدث في ثيابه !

والإيمانُ الصَّحيحُ هو بَشَاشةُ الرُّوح ، وإعطاءُ الله الرِّضا من القلب ، ثقةً بوعده ، ورَجَاءً لما عنده ، ومن هذين يكون الاطمئنان . وبالبشاشة ، والرِّضا ، والثِّقة ، والرَّجاء يصبح الإيمانُ عقلاً ثانياً مع العقل ، فإذا ابْتُلِيَ المؤمنُ بما يذهب معه الصَّبْرُ ، ويطيشُ له العقل ، وصار من أمره في مثل الجنون ؛ بَرَزَ في هذه الحالة عقلُه الرُّوحانيُّ ، وتولَّى سياسةَ جسمه حتَّى يُفيقَ العقلُ الأوَّل . ويجيء الخوفُ من عذاب الله ، ونقمته في الآخرة ، فيَغْمرُ به خوفَ النَّفس من الفقر ، أو المرض ، أو غيرهما فيقتلُ أقواهما الأضعفَ ، ويُخرج الأعزُّ منهما الأذلَّ .

فالاطمئنان بالإيمان هو قتلُ الخوف الدُّنيويِّ بالتَّسليم والرضا ، أو تحويلُه عن معناه بجعل البلاء ثواباً ، وحسنَاتٍ ، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرةً بكلِّ ما فيها إلى الموت ؛ وهو بهذا عقلٌ روحانيٌّ له شأنٌ عظيمٌ في تصريف الدُّنيا ، يترك النَّفسَ راضيةً مَرْضِيَّة ، تقول لمصائبها ؛ وهي مطمئنةٌ : نعم ! وتقول لشهواتها ؛ وهي مطمئنةٌ : لا !

وما الإنسان في هذا الكون ؟ وما خيره ، وشرُّه ؟ وما سخطُه ، ورضاه ؟ إنْ كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةً من التُّراب تتكبَّر ، وقد نسيتْ : أنَّه سيأتي من يكنسُها .

* * *

قال الشَّيخ : وانظر ، أما تُبْتلَى الشَّجرةُ الخضراءُ في بعض أوقاتها بمثل ما يُبْتَلى به الإنسان ، غير : أنَّ لها عقلاً روحانيّاً مستقرّاً في داخلها ، يمسك الحياةَ عليها ، ويَترَبَّصُ حالاً غير الحال ؛ ومهما يكنْ من أمرِ ظاهرِها وبَلائِه فالسَّعادةُ كلُّها في داخلها ، ولها دائماً ربيعٌ على قدْرها حتَّى في قُرِّ الشِّتاء .

فالعقلُ الرُّوحانيُّ الآتي من الإيمان ، لا عملَ له إلا أن ينشئ للنَّفس غريزةً متصرِّفةً في كلِّ غرائزها ، تُكمِّل شيئاً ، وتنقص من شيء . وتُوَجِّه إلى ناحيةٍ ، وتصرفُ عن ناحيةٍ ؛ وبهذه الغريزة تسمو الرُّوح ، فتكون أكبرَ من مصائبها ، وأكبرَ من لذَّاتها جميعاً .

وتلك الغريزةُ هي نفسُها معنى الرضا بالقدَرِ خيرِه ، وشرِّه ، وهي تأتي بالتَّأويل

لكلِّ هموم الدُّنيا ، فتضعُ في النَّكَبَات معانيَ شريفةً تنزع منها شرَّها ، وأذاها للنَّفس ؛ وليست المصيبةُ شيئاً لولا تأذِّي النَّفسِ بها . وإذا وقع التَّأويلُ في معاني النَّكبات ؛ أصبحت تعمل عملَ الفضائل ، وتغيَّرتْ طبيعتُها ، فيعود الفقر باباً من الزُّهد ، والمرضُ نوعاً من الجهاد ، والخيبةُ طريقاً من الصَّبر ، والحزن وجهاً من الرَّجاء ، وهلمَّ جرّاً .

والنَّفسُ وحدَها كنزٌ عظيمٌ ، وفيها وحدَها الفرحُ ، والابتهاجُ ، لا في غيرها ، وما لذَّاتُ الدُّنيا إلا وسائلُ لإثارة هذا الفرح ، وهذا الابتهاج ، فإنْ وُجدا مع الفقر بطلتْ عِزَّةُ المال ، وأصبح حجَراً من الحجَر ؛ والبلبلُ يتغرَّد بحَنْجرته الصَّغيرة ما لا تُغْني فيه آلاتُ التَّطْريب كلُّها . وفي النَّفس حياةُ ما حَوْلها ، فإذا قَويتْ هذه النَّفس ؛ أذلَّت الدُّنيا ، وإذا ضعُفتْ ؛ أذلَّتها الدُّنيا !

* * *

قال المسيَّب : ثُمَّ سكت الشَّيخ قليلاً ، وكنت أرى الرَّجل كأنما يغتسلُ بكلامه ، وقد أشرق وجهه ، وتَنضَّر ، وانقلب إلى روحه الَّتي كان منصرفاً عنها ، فعادت مصائبه تضغطُ روحاً لينةً ، كما تضغط اليد على الماء ، وأيقن : أنَّ النَّكبةَ كلَّها هي أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته ، فيُنكَبَ أولَ ما ينكبُ في صبره ويقينه .

ثُمَّ قال الشَّيخ ، ولقد رأيتُ بعينيْ رأسي معجزةَ (العقل الرُّوحانيِّ) وكيف يصنع : رأيت عروة بن الزُّبير[١] ـ وهو شيخٌ كبيرٌ ـ عند الوليد بن عبد الملك ، وقد وقعت في رجْله الأُكْلة ، فأشاروا عليه بقطعها ، لا تُفسِد جسدَه كلَّه ، فدُعِيَ له مَنْ يقطعها ، فلمَّا جاء ، قال له : نسقيك الخمر حتَّى لا تجدَ لها ألماً . فقال عروة : لا أستعين بحرامٍ على ما أرجو من عافية ! قال : فنسقيك المُرْقِد . فقال عروة : ما أحبُّ أن أُسلَبَ عضواً من أعضائي ، وأنا لا أجد ألمَ ذلك ، فأحتسبه !

ثُمَّ دخل رجالٌ أنكرهم عروة ، فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يُمسكونك ، فإنَّ الألم ربَّما عَزَب[٢] معه الصَّبر . قال : أرجو أن أكفيَكم ذلك من نفسي !

(١) توفي سنة (٩٣) للهجرة . (ع) .
(٢) « عزب » : عزب الشيء : بَعُدَ ، وغاب .

قال الشَّيخ : فانظر أيُها الضَّعيف ؛ الَّذي يريد قتل نفسه : كيف صنَع عروة ، وكيف استقبل البلاء ، وكيف صبر ، وكيف احتمل ! إنَّه انصرف بحسِّه إلى النَّفس ، فانبسطت روحُه عليه ، وأخذ يكبِّر ، ويهلِّل ليبقى مع روحه وحدَها ، وخرج من دنيا ظاهرِه إلى دنيا باطنِه ، وغُمِرَتْ حواسُّه ، وأعصابُهُ بالنُّور الإلهيِّ من معنى التَّكبير ، والتَّهليل ، فقطعَ القاطعُ كعبَه بالسِّكين ؛ وهو لا يلتفت ، حتَّى إذا بلغ العظمَ وضعَ عليها المنشار ، ونشرها ؛ وعروةُ في التَّكبير ، والتَّهليل ؛ ثُمَّ جيء بالزيت مغليّاً في مغارف الحديد ، فَحُسِمَ به مكانُ القطع ، فَغُشيَ على عروةَ ساعةً ثُمَّ أفاق ، وهو يمسح العرَق عن وجهه ، ولم يُسمع منه في كلِّ هذه الآلام الماحقة أنَّةٌ ، ولا آهةٌ ، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك : « جاء ما لا صَبرَ عليه . . . ! » .

* * *

قال المسيَّب : وأُرْهِف بأسُ الرَّجلِ الضَّعيف ، وقَوِي جأشُه ، وانبعثت فيه الرُّوحُ إلى عُمرٍ جديد ، ونشأ له اليقينُ من عقله الرُّوحانيِّ ، وعرف : أنَّ ما لا يمكن أن يدرَك ؛ يمكن أن يُترَك .

وجاء هذا العقل الرُّوحانيُّ فمرَّ بالمِنشار على اليأس الذي كان في نفسه ، فقطعه ، فما راعنا إلا أن وثبت الرَّجل قائماً يقول : الله أكبر من الدُّنيا ، الله أكبر من الدُّنيا !

ثم أكبَّ على يد الشَّيخ ، وهو يقول : صدقت ! إنْ كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةَ من التُّراب تتكبَّر ، وقد نَسِيَتْ : أنَّه سيأتي من يكنسها ! .

* * *

ماذا يصنع الإنسان إذا غلط في مسألة من مسائل الدُّنيا إلا أن يتحرَّى الصَّواب ، ويجتهد في الرُّجوع إليه ، ويصبر على ما يناله في ذلك . وماذا يصنع الإنسان إذا غلطت فيه مسألة . . . . ؟

* * *